

إذا الفجائية: إشكالية التصنيف والتركيب والعمل^(١)

هبة الله محمد شفيع

د. طلال يحيى إبراهيم الطوبجي

قسم اللغة العربية / كلية الآداب

جامعة الموصل

القبول

الاستلام

٢٠٠٩ / ٠٦ / ٠٣

٢٠٠٩ / ٠٤ / ٠٦

ABSTRACT

The paper presents the problem of categorizing the particle (ITHA) that comes abruptly. The particle is a one – letter word. Then the paper states the types of sentence structure and shows the workability and function of the particle in the show the positions in which the particle occurs in the Holy Quran with its lineguistic cotexts.

ملخص البحث

عرض البحث لإشكالية تصنيف الأداة (إذا) الفجائية، مرجحاً حرفية الأداة، ثم عرض لأنماط بناء الجملة بعد هذه الأداة، مع بيان طبيعة عمل الأداة ووظيفتها في التركيب. وألحق البحث بجدول بيّن مواضع ورود الأداة في القرآن الكريم مع بيان سياقاتها النحوية، مُنهيًا البحث بخاتمة واستنتاج عُرض فيهما ما توصل إليه البحث.

(١) البحث مستل من رسالة ماجستير بعنوان: (جملة إذا الفجائية في القرآن الكريم – دراسة في السياق

والتركيب) قدمها: هبة الله محمد شفيع إلى كلية الآداب – جامعة الموصل، بإشراف الأستاذ المساعد

الدكتور: طلال يحيى إبراهيم الطوبجي، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله حمدَ الشاكرين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:
فقد تجاوزت الدراسات الحديثة العناية بـ(نحو المفردات) إلى عالم النصّ الفسيح، فأضحت الجمل لبنات صغرى تقوم بتشكيل النص، وتمنحه سمته المميزة، وبيات مفهوم التماسك والترابط بين الجمل من أبرز علامات النص التي تحافظ على استمرار عملية الاتصال بين طرفي العملية الكلامية (المخاطب والمخاطب) وديمومتها، مع ملاحظة ما يحيط بالنص داخلياً وخارجياً.

وقد حفلت كتب التفسير بالكثير ممّا يتعلق بهذا الخصوص وهي تسعى إلى تفسير كلام الله ﷻ حسب الطاقة البشرية، فتشكلت بذلك نواة علم جديد هو علم المناسبة الذي يعدُّ بحق أول إسهام عربيّ مسلم في مجال دراسة النصّ وفهمه.

وقد أولى علم المناسبة فيما أولاه من دراسة علاقة الجمل في الآية الواحدة أو الآيات المتجاورة في سياق السورة الواحدة. وقد لفت انتباهنا في هذا الخصوص جملة (إذا) الفجائية، وما تؤديه من زخم تعبيرية في سياقاتها الخاصة، فكان التوجه — بعد الاتكال على الله وحده — دراسة هذا الموضوع وقد اقتصر بحثنا هذا على جانبين، أولهما: دراسة الأداة من حيث إشكالية التصنيف والتركيب والعمل، وأما الجانب الآخر فهو صنع كشاف لمواضع ورود هذه الأداة في كتاب الله تعالى مصنفا حسب السياق القرآني، ومن الله وحده نستمد العون والتوفيق.

القسم الأول: إشكالية التصنيف والتركيب والعمل:

أولاً — إشكالية التصنيف:

لا يخفى أنّ تصنيف الوحدة اللغوية ضمن حقول: الاسم، أو الفعل، أو الأداة، هو الخطوة الأولى إلى سبيل استقرار المادة النحوية، كي تخضع بعد ذلك لقواعد التقنين النحوي. وقد برع النحاة العرب في هذا المجال إلى حدٍّ بعيد جداً، إذ لم يتخلف عن هذا التصنيف إلا قسم من المفردات التي أشهرها: (إذا) الفجائية.

وحقاً ليُدْهش الباحث من تضارب أقوال النحاة في تصنيف (إذا)، فهناك من رأى أنّ هذه المفردة هي ظرف، ثم اختلف القائلون بظرفيتها، فذهبت طائفة منهم إلى وسمها بالظرفية المكانية، في حين مال آخرون إلى تصنيفها ضمن ظروف الزمان، وهناك من قيّد الظرفية بتضمينها معنى الفعل.

في حين ذهب فريق آخر من النحاة إلى القول بحرفيتها، وأخيراً مال بعضهم إلى تصنيفها في حقل الأفعال، وهو أضعف الأقوال جميعاً في تصنيف هذه الكلمة.

وبعد هذا العرض المكثف لإشكالية التصنيف، سنقف بشيء من التفصيل عند كل قول منها، فيما يأتي:

١ - الظرفية:

رأت طائفة من قدماء النحاة أنّ (إذا) الفجائية هي من ضمن الظروف، ولكنهم اختلفوا في وظيفتها، أهى للدلالة على المكان، أم للدلالة على الزمان؟ وفيما يأتي بيان ذلك: إن أول إشارة - وصلت إلينا - إلى القول بظرفية (إذا) الفجائية كانت عند سيبويه (ت ١٨٠هـ)، إذ قال في كلامه على أنواع (إذا): «وتكون للشيء توافقه في حال أنت فيها*، وذلك قولك: مررت فإذا زيد قائم»^(١). وفهم جمهور النحاة من قول سيبويه هذا حمل (إذا) الفجائية على الظرفية، ولكنهم اختلفوا في التحديد، فهناك من قال إن سيبويه قصد الظرفية المكانية، ورجح أكثرهم أنه قصد الظرفية الزمانية^(٢).

ولم يختلف الأمر كثيراً عند المبرّد (ت ٢٨٥هـ) سوى أنه نعت (إذا) هذه بكلمة: (حرف) في أحد المواضع فقال: «ولـ(إذا) موضع آخر، وهي التي يقال لها حرف المفاجأة، وذلك قولك: خرجت فإذا زيد، وبيننا أسير فإذا الأسد»^(٣).

ولكنه ذكر في موضع آخر ما يقطع بظرفيتها، فقال: «فأما (إذا) التي تقع للمفاجأة فهي التي تسد مسد الخبر، والاسم بعدها مبتدأ، وذلك قولك: جئتك فإذا زيد، وكلمتك فإذا أخوك. وتأويل هذا: جئت ففاجأني زيد، وكلمتك ففاجأني أخوك»^(٤).

ولهذا سعى محقق الكتاب الشيخ عبد الخالق عضيمة إلى التوفيق بين القولين، فرأى أن تُحمل «لفظة (حرف) على الكلمة، لا على الحرف الذي هو قسيم الاسم والفعل، وهذا استعمال شائع عند سيبويه وغيره»^(٥). وما ذكره الشيخ عضيمة ظاهر جداً.

ونقف هنا عند مسألة على جانب من الأهمية، ففي ظاهر كلام المبرّد أنه لم ينص صراحةً على الظرفية المكانية أو الزمانية لـ(إذا)، ولكن فهم المتأخرون من كلامه القول بالظرفية المكانية^(١)، فما سبب ذلك؟ ولم اختلفوا في مراد سيبويه من قوله السابق؟

* يقصد سيبويه بهذا (إذا) الفجائية، التي عبر عنها في موضع آخر بقوله: "ولـ(إذا) موضع آخر يحسن ابتداء الاسم بعدها فيه" الكتاب: ١ / ١٠٧.

(١) الكتاب: ٤ / ٢٣٢.

(٢) ينظر مثلاً: شرح التسهيل: ١٤٢/٢، والجنى الداني: ٣٦٥ - ٣٦٦.

(٣) المقتضب: ٢ / ٥٧ - ٥٨.

(٤) م. ن: ٣ / ١٧٨.

(٥) م. ن، هامش: ٢ / ٥٨.

والجواب: إن ذلك يعود إلى طبيعة المثال النحوي الذي ساقه الاثنان تمثيلاً لـ (إذا) الفجائية، فسيبويه مثل بقوله: فإذا زيدٌ قائمٌ، في حين مثل المبرد بقوله: جئتُك فإذا زيدٌ، وكلمتُك فإذا أخوك. فسيبويه ذكر بعد (إذا) المبتدأ والخبر، في حين اكتفى المبرد بذكر المبتدأ. وإذا ذكر المبتدأ وحده بعد (إذا) الفجائية فإنها تكون خبراً عنه، فيتعين كونها ظرف مكان، إذ لا يجوز أن تكون ظرف زمان؛ لامتناع وقوع ظرف الزمان خبراً عن الجثة.

وقد جنح عدد من النحاة إلى اختيار القول بالظرفية الزمانية، إذ حكي ذلك عن الرياشي (ت ٢٥٧هـ)^(٢)، وكان الزجاج (ت ٣١١هـ) «يقول: إن (إذا) على كل حال للزمان»^(٣)، وهو اختيار الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) أيضاً^(٤)، وهو ما رجحه الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) وعدّه القول المحقق في المسألة^(٥)، واختاره أيضاً ابن طاهر (ت ٥٨٠هـ)، وابن خروف (ت ٦٠٩هـ)^(٦).

في حين مالت طائفة أخرى من النحاة إلى اختيار القول بالظرفية المكانية منهم: أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) وتلميذه ابن جني^(٧) (ت ٣٩٢هـ) وهو اختيار ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) إذ قال: «وقد تكون (إذا) للمفاجأة، فتكون فيه اسماً للمكان، وظرفاً من ظروفه»^(٨)، وبالمثل اختاره ابن القوّاس الموصلي (ت ٦٩٦هـ) إذ قال عن (إذا) الفجائية: «يلزم المبتدأ بعدها، وتكون حينئذٍ ظرف مكان؛ لأنك تقول: خرجت فإذا زيدٌ قائماً، فتتصب (قائماً) على الحال، فلو لم تكن (إذا) هي الخبر لامتنع نصبه»^(٩).

ولا يخلو توجيه الفائلين بالظرفية المكانية من ضعف؛ إذ إنهم يؤولون (إذا) بكلمة (بالحضرة) لتكون ظرفاً مكانياً ولو كان الأمر كذلك لجاز تقديمها على الاسم وتأخيرها عنه،

(١) ينظر: النكت في تفسير كتاب سيبويه: ٢ / ١١٣١، ومغني اللبيب: ١٢١.

(٢) ينظر: الفرائد الجديدة: ١ / ٤٠٠، والحفاية بتوضيح الكفاية للبيتوشي، رسالة ماجستير قدمها: طه صالح، إلى كلية الآداب - جامعة صلاح الدين ١٩٩٣: ٣٥٠.

(٣) النكت في تفسير كتاب سيبويه: ٢ / ١١٣٠.

(٤) ينظر: الفرائد الجديدة: ١ / ٤٠٠، وتجدر الإشارة إلى أنه لم يُعلق على (إذا) الفجائية في كتابه: حروف المعاني.

(٥) ينظر: الكشاف: ٤ / ٩٣.

(٦) ينظر: الفرائد الجديدة: ١ / ٤٠٠.

(٧) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١ / ٢٥٦.

(٨) شرح المفصل: ٣ / ١٢٥.

(٩) شرح ألفية ابن معط: ٢ / ١١٣٧.

كما يجوز تقديم (بالحاضرة) وتأخيرها. ولكن لزوم تقديم (إذا) في كل كلام تكون فيه للمفاجأة دليل على ضعف التوجيه. وقبل أن نختم كلامنا في هذه المسألة نشير إلى أن اثنين من النحاة هما: الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، والشلوبين (ت ٦٤٥هـ)، كان لهما قولان في المسألة، إذ نقل عنهما القول بالظرفية الزمانية، وكذلك القول بالحرفية^(١).

٢ - تقييد الظرفية بتضمن معنى الفعل:

انبثق هذا الرأي، عن المناظرة التي جرت بين سيبويه، والكسائي (ت ١٨٩هـ) والتي عرفت بالمسألة الزنبورية، وذكر هذا القول دفاعاً عما سأله الكسائي لسيبويه في قول العرب: «قد كنت أظن أن العقب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها»^(٢) إذ ذهب أبو بكر بن الخياط (ت ٣٢٠هـ) إلى صحة ورود (إياها) بعد ضمير الرفع في (فإذا هو إياها) ووجه ذلك بأن «(إذا) ظرف فيه معنى وجدت ورأيت، فجاز له أن ينصب المفعول»^(٣). ولم ينفرد ابن الخياط بهذا التوجيه إذ نقل بعينه عن الكوفيين^(٤).

وقد ردّ ابن هشام (ت ٧٦١هـ) رأي ابن الخياط محتجاً بـ «أن المعاني لا تنصب المفاعيل الصحيحة، وإنما تعمل في الظروف والأحوال»^(٥).

ووسم أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ) ما ذكره ابن الخياط والكوفيون بالبطلان؛ لأنّ (إذا) حينئذٍ تعمل عمل ظرف، وعمل (وجدت)، فترفع الأول؛ لأنها ظرف، وتنصب الثاني على أنها فعل ينصب مفعولين، لأنهم إن أعملوها عمل الظرف بقي المنصوب بلا ناصب، وإن أعملوها عمل الفعل لزمهم وجود فاعل ومفعولين، وليس لهم إلى إيجاد ذلك سبيل^(٦).

٣ - الحرفية:

ذهبت طائفة من النحاة القدماء، وأكثر النحاة المحدثين إلى القول بحرفية (إذا) الفجائية، وينسب هذا القول إلى الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ) والكوفيين^(٧). ولكن بعد النظر

(١) ينظر: مجالس العلماء: ٨٩، ومغني اللبيب: ١٢٥، والفرائد الجديدة: ١ / ٤٠٠، والحفاية بتوضيح

الكفاية: ٣٤٩، وتجدر الإشارة إلى أنني لم أقف على رأي الشلوبين في كتابه التوطئة.

(٢) مغني اللبيب: ١٢١.

(٣) م. ن: ١٢٥.

(٤) ينظر: شرح الرضي المعروف شرح كافية ابن الحاجب: ٣ / ١٦٠، والمنصف: ١ / ١٩٤.

(٥) مغني اللبيب: ١٢٥.

(٦) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين: ٢ / ٧٠٥.

(٧) ينظر: همع الهوامع: ٣ / ١٨٢، ومجالس العلماء: ٨٩، والحفاية: ٣٤٩.

يتضح أنّ نسبة القول بحرفيتها إلى الكوفيين^(١) غير دقيقة، فهي عندهم ظرف مكان قد ضُمن معنى الفعل^(٢).

وذكر الكنغراوي (ت ١٣٤٩هـ) أنّ (إذا) ظرف مكان، إذ قال: «وقد تكون للمفاجأة، فهي إذاً اسم محل مفعول فيه للجملة التي بعدها...»^(٣). والكنغراوي في كتابه هذا — كما هو معلوم — يحكي آراء الكوفيين المشهورة في المسائل النحوية. ويبدو: أنّ ما ينسبه النحاة من القول بحرفية (إذا) الفجائية إنما هو قول لبعضهم، وليس لجمهورهم. وكذلك نُقل عن الأخفش القول بحرفيتها في أحد قوليه، كما نُقل عنه القول بظرفيتها^(٤).

ويُلاحظ أنّ المرادي^(٥) (ت ٧٤٩هـ)، وابن هشام^(٦) (ت ٧٦١هـ)، والشُّمّني^(٧) (ت ٨٧٢هـ)، والسيوطي^(٨) (ت ٩١١هـ)، لم ينقلوا القول الآخر للأخفش، وهو أن تكون (إذا) الفجائية بمعنى الوقت، أي أن تكون ظرف زمان.

ومن ذهب إلى حرفيتها يستدل بوقوع (إنّ) المكسورة بعدها في قول الشاعر:

كُنْتُ أَرَى زَيْدًا كَمَا قِيلَ سَيِّدًا إِذَا إِنَّهُ عَبْدُ الْفَقَا وَاللّهَازِمِ^(٩)

وذلك لأن (إن) لا يعمل ما بعدها فيما قبلها^(١٠). وذكر البيهقي (ت ١٢١١هـ) أن الاستدلال بهذا البيت «دليلٌ حسنٌ على حرفيتها»^(١١).

وذهب السيرافي^(١٢) (ت ٣٦٨هـ)، والأعلم الشنتمري^(١) (ت ٤٧٦هـ)، وابن برّي^(٢) (ت ٥٨٢هـ)، وابن مالك^(٣) (ت ٦٧٢هـ)، والرّضوي^(٤) (ت ٦٨٨هـ)، والمالقي^(٥)

(١) ينظر: الجنى الداني: ٣٦٦، وهمع الهوامع: ٣ / ١٨٢، والفرائد الجديدة: ١ / ٤٠٠.

(٢) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف: ٢ / ٧٤.

(٣) الموفي في النحو الكوفي: ١١٠.

(٤) مجالس العلماء: ٨٩.

(٥) ينظر: الجنى الداني / ٣٦٤.

(٦) ينظر: مغني اللبيب: ١٢٠.

(٧) المنصف من الكلام على مغني ابن هشام: ١ / ١٨٦.

(٨) ينظر: همع الهوامع: ٣ / ١٨٢.

(٩) الكتاب: ٣/١٦٥، وخرزانه الأدب: ١٠ / ٢٨٧، وهذا البيت من شواهد سيبويه التي لا يعرف قائلها.

(١٠) همع الهوامع: ٣ / ١٨٢.

(١١) الحفاية بتوضيح الكفاية: ٣٥٠.

(١٢) ينظر: شرح كتاب سيبويه: ٣/٣٧٠، وخرزانه الأدب: ١٠ / ٢٨٧.

(ت ٧٠٢هـ)، والمرادي^(٦) (ت ٧٤٩هـ)، وخالد الأزهرى^(٧) (ت ٩٠٥هـ) إلى القول بحرفيتها.

ورجّحَ عباس حسن — من المحدثين — القول بحرفيتها إذ يقول: «والأحسن في هذه الحالة — أي إذا كانت للمفاجأة — اعتبارها حرفاً»^(٨)، وكذلك محمود صافي^(٩) وكذلك اختار حرفيتها محيي الدين درويش^(١٠)، والدكتور أيمن عبد الرزاق الشوّ^(١١). وهو ما ترجح لدينا أيضاً، بعد أن تجمعت لدينا أدلة على ذلك وهي لا تخرج في جوهرها عما ذكره ابن مالك في شرح التسهيل بعد أن اطلعنا على كلامه، وهي^(١٢):

أولاً: إنها كلمة تدل على معنى في غيرها، وغير صالحة لشيء من علامات الأسماء، والأفعال.

ثانياً: إنها كلمة لا تقع إلا بين جملتين، وذلك لا يوجد إلا في الحروف كـ (لكن) و(حتى) الابتدائية.

ثالثاً: إنها كلمة لا يليها إلا جملة ابتدائية مع انتفاء علامات الأفعال، ولا يكون ذلك إلا في الحروف.

رابعاً: إنها لو كانت ظرفاً لم يختلف من حكم بظرفيتها في كونها مكانية، أو زمانية، إذ ليس في الظروف ما هو كذلك.

- (١) ينظر: النكت في تفسير كتاب سيبويه: ٢ / ٧٨٤.
- (٢) ينظر: شرح الرضي: ٢٠١/١، و ١٦٤/٣.
- (٣) ينظر: شرح التسهيل: ٢ / ١٤٢.
- (٤) ينظر: شرح الرضي: ٣ / ١٦٠، ١٦٤.
- (٥) ينظر: رصف المباني: ٦١.
- (٦) ينظر: الجنى الداني: ٣٦٤.
- (٧) موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب: ١ / ٩٧.
- (٨) النحو الوافي: ١ / ٢١٨.
- (٩) إذ قال وبعض النحاة اعتسف الطريق فجعلها ظرف زمان، أو مكان وأدى به ذلك إلى تأويلات وتكلفات لا طائل تحتها، الجدول: ٣ / ١٠١.
- (١٠) ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٢ / ٣٦٧.
- (١١) ينظر: من أسرار الجمل الاستثنائية: ٢٩٧.
- (١٢) ينظر: شرح التسهيل: ١٤٢/٢ — ١٤٣، وشرح عمدة الحافظ وعدة اللافت: ٢٤٣ — ٢٤٤.

خامساً: إنها لو كانت ظرفاً لم تربط بين جملي الشرط والجزاء نحو: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ [الروم: ٣٦]. إذ لا تكون كذلك إلا حرفاً.

سادساً: إنها لو كانت ظرفاً لوجب اقترانها بالفاء إذا صُدِّرَ بها جواب الشرط، فإن ذلك لازم لكل ظرف صُدِّرَ به الجواب.

سابعاً: إنها لو كانت ظرفاً لأغنت عن خبر ما بعدها، ولكن نصب ما بعده على الحال، كما كان مع الظروف المجمع على ظرفيتها كقولك: (عندي زيد مقيماً، وهناك بشرٌ جالساً)، والاستعمال في نحو: (مررت فإذا زيدٌ قائمٌ) بخلاف ذلك.

ثامناً: إنها لو كانت ظرفاً لم تكسر بعدها همزة (إن).

٤ - الفعلية:

لم نقف على قول صريح بفعلية (إذا) الفجائية لنحوي معروف، إلا ما حكاه المالقي عن بعضهم، كما سيأتي لاحقاً.

ولكن أشارت طائفة منهم إلى أنها تكون بمعنى الفعل، وليس هذا بغريب فقد قالوا إن (يا) بمعنى (أدعو)، و(ليت) بمعنى (أتمنى) وهكذا...، فمثلاً يقول الفراء (ت٢٠٧هـ) في معرض حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ﴾ [يونس: ٢١]: «العرب تجعل (إذا) تكفي من فعلتُ وفعلوا، وهذا الموضع من ذلك:

أكتفي بـ(إذا) من (فعلوا)، ولو قيل: من بعد ضراء مستهم مكروا: كان صواباً»^(١).

والذي يبدو: أنه لا يفهم من قوله هذا أن (إذا) فعل، وإنما اكتفي بها عنه إيجازاً، مع ما تلقى إلى الذهن من معنيي السرعة والبغته.

ولكن نقل المالقي قول من زعم «أن (إذا) الفجائية في موضع فعل، فيكون الأسد على هذا فاعلاً بها في قولهم: خرجت فإذا الأسد، لأنها في موضع فعل»^(٢). وهذا الزعم لا يتفق مع ما ذكره النحاة من تصنيف (إذا) الفجائية، إذ إنهم يقرون بحرفيتها وظرفيتها الزمانية والمكانية، ولا رابع لذلك.

(١) معاني القرآن: ١ / ٤٥٩.

(٢) رصف المباني: ٦١.

والذي نراه: أن الاختلاف في توجيه (إذا) الفجائية على الظرفية الزمانية، أو المكانية أمرٌ مقبولٌ، ولكن الغريب حقاً أن تُصنف في حقل الأفعال، والظاهر أن مقصود القائل بفعاليتها قائمٌ على أساس التفسير المعنوي لوظيفة الأداة، ويمكن أن يفهم ذلك من كلام ابن جني في حديثه عنها إذ قال: «وأما تفسير المعنى فهو خرجت ففاجأت زيدا وإن شئت خرجت ففاجأني زيد»^(١)، أو أن ذلك متأتٍ عن طريق التضمين.

ثانياً – إشكالية التركيب والعمل:

لم يقتصر الخلاف حول (إذا) الفجائية على التصنيف فحسب، بل ثمة إشكال آخر تجسد في طبيعة بناء الجملة بعدها. وانبنى على ذلك خلاف في توجيه عمل (إذا) الفجائية فيما بعدها، وهو ما جسده أخطر مناظرة علمية في تأريخ النحو العربي، أعني بذلك ما دار بين سيبويه والكسائي فيما عُرف بالمسألة الزنبورية. وسنعرض فيما يأتي لتوصيف بناء الجملة وتركيبها بعد (إذا) الفجائية، مع بيان طبيعة عملها فيما بعدها، وعليه سيدور الكلام في محورين اثنين هما: التركيب والعمل.

١ – التركيب:

إن تركيب الجملة يعني بناءها أو صياغتها من خلال رصف الوحدات اللغوية المعبرة عن مقصد المتكلم على وفق قواعد الإسناد والإفادة المتعارف عليها في أية لغة. وفيما يأتي توصيف لأنماط تركيب الجملة وبنائها بعد (إذا) الفجائية:

أ – مجيء الاسمين مرفوعين بعدها:

وهو من أشيع الأنماط التركيبية، فإذا وقع اسمان مرفوعان بعد (إذا) الفجائية، فلا يُقدَّر حينئذٍ خبر، ويكون (قائمٌ) خبراً للمبتدأ (زيد) في نحو: (خرجت فإذا زيد قائمٌ)، ويكون الخبر (قائمٌ) ناصباً لـ(إذا)، سواء أكانت (إذا) ظرف مكان أم ظرف زمان حسب توجيه القائلين بظرفيتها.

وذكر الخبر مع (إذا) الفجائية هو الأكثر والأشيع، وبه نطق الكتاب الكريم، وهو الأظهر، كما مثّل لذلك سيبويه: (خرجت فإذا زيد قائمٌ)^(٢).

(١) سر صناعة الإعراب: ١ / ٢٥٦.

(٢) الكتاب: ٤ / ٢٣٢.

وهذا التركيب الاسمي يتكون من المبتدأ والخبر، والخبر يأتي مفرداً، وجملة اسمية، وجملة فعلية، وشبه جملة، ولكن لم نقف على شاهد فصيح ورد فيه خبر المبتدأ بعد (إذا) الفجائية جملة شرطية – حسب اطلاعنا –؛ ولعل السبب في ذلك أن المفاجأة تكون من أمر واقع، وجملة الشرط تقوم على أمر متوقع، فيحصل بينهما تنافر، وهذا متأث من دلالة (إذا) الفجائية على الحال لا الاستقبال.

ب – مجيء الاسم الأول مرفوعاً والثاني منصوباً:

قد يأتي الاسم الثاني منصوباً بعد (إذا) الفجائية، إذا قيل بظرفيتها المكانية، وحينئذ تكون (إذا) خبراً عن المبتدأ، لأنه إذا قلت: خرجت فإذا السبع، وأردت به الظرفية، لم يكن ثم حذف، وكان السبع مبتدأً و (إذا) هي الخبر، كما تقول عندي زيد، فإن ذكرت اسماً آخر، كان منصوباً على الحال نحو: (خرجت فإذا السبع واقفاً أو عادياً).

وذهب المالقي إلى حذف الخبر في مثل هذا التركيب، منطلقاً في توجيهه هذا من القول بحرفية (إذا) الفجائية^(١). وينطبق هذا التوجيه أيضاً إذا حملنا (إذا) على الظرفية الزمانية؛ لأن ظروف الزمان لا تكون خبراً عن اسم الجثة.

وهذا التركيب أي مجيء الاسم الثاني منصوباً بعد (إذا) الفجائية لا تتضوي تحته المسألة الزنبرية الشهيرة – على الأرجح – وذلك لأن المنصوب في (فإذا هو اياها) ضمير، والضمائر معارف، في حين لا تكون الحال إلا نكرة على الأشيع.

ج – مجيء المبتدأ فقط بعد (إذا) الفجائية:

هذا الموضع من المواضع التي يجوز فيها حذف الخبر، نحو: (خرجت فإذا السبع)، والتقدير: فإذا السبع حاضر^(٢). وحذف الخبر هنا للعلم به؛ لأنه كون، أو استقرار مفهوم من قرائن الكلام، ومن المفاجأة المدلول عليها بالأداة. ولا يتأتى هذا التوجيه إلا بالقول بحرفية الأداة أو بظرفيتها الزمانية.

وذهب المبرد إلى أن الخبر ليس محذوفاً، وإنما الخبر هو (إذا) الفجائية، وهي ظرف مكان، في محل رفع خبر مقدم للمبتدأ (السبع)، فيصير معنى المثال: (فالحضرة السبع)، وقد سبق بيان هذا.

(١) ينظر: رصف المباني: ٦١.

(٢) ينظر: شرح ابن عقيل: ١ / ٢٤٤.

ويعزز ابن يعيش قول المبرّد إذ يقول: «فإذا قلت (خرجت فإذا السبع) وأردت به الظرفية المكانية، لم يكن ثمّ حذف، وكان السبع مبتدأ، وإذا الخبر»^(١).

د - مجيء الاسم مشغولاً عنه بعد (إذا) الفجائية:

نلاحظ مما سبق أن (إذا) الفجائية تباشر الأسماء فقط فرقاً بينها وبين (إذا) الشرطية المختصة بالأفعال، ولذلك ذكر ابن هشام الأنصاري: أن (إذا) الفجائية «تختص بالجمل الاسمية»^(٢).

ولكن ثار خلاف بين النحاة حول جواز مجيء الاسم بعدها مشغولاً عنه في نحو: (خرجت فإذا زيد يضربه عمرو)، فقيل: يُمنع ذلك مطلقاً، في حين ذهب الأخفش الأوسط وتبعه ابن عصفور إلى الجواز بشرط اقتران الفعل بـ(قد) نحو: (خرجت فإذا زيد قد ضربه عمرو)، وامتناع ذلك من دون (قد)، وذهب الكسائي إلى الجواز مطلقاً سواء اقترن الفعل بـ(قد) أم لم يقترن^(٣). وظاهر كلام سيبويه الجواز، خلافاً لمن نقل عنه المنع^(٤). والظاهر جواز هذا الاستعمال؛ لأن الفعل يقدر مؤخراً، فلا يتقدم على المبتدأ، فضلاً عن ان بناء الجملة يحكي المقصود من المعنى، بإحداث التوكيد أولاً من خلال تقديم المفعول، والمفاجأة ثانياً من حيث ايلأوه لاذا الفجائية.

٢ - العمل:

لم يقتصر الإشكال في (إذا) الفجائية على التصنيف وتركيب الجملة بعدها، بل تعدى ذلك إلى عمل الأداة نفسها، ولا شك في أنّ هذا الخلاف يتصل اتصالاً وثيقاً بطبيعة تصنيفها، لذا سنبحث: إضافة (إذا) إلى الجملة بعدها، من حيث الجواز أو عدمه.

فقد اختلف النحاة في إضافة (إذا) الفجائية إلى ما بعدها، ويكمن هذا الاختلاف في كون (إذا) ظرف زمان، أو ظرف مكان، أما على القول بحرفيتها فلا إشكال حينئذ، إذ تكون غير مضافة؛ لأنّ الحروف لا تُضاف.

فدار الخلاف بين القائلين بظرفيتها، إذ قالت طائفة بالظرفية المكانية، وعليه فلا يجوز أن تكون (إذا) مضافة إلى الجملة الاسمية؛ لأنّ (إذا) ظرف مكان ولا يُضاف «من ظروف المكان إلاّ حيث»^(٥)، ولهذا يقول النحاة: إنّ سبب بناء (حيث) هو خروجها عن بابها بإضافتها.

(١) شرح المفصل: ١ / ٢٤٠.

(٢) مغني اللبيب: ١٢٠.

(٣) حاشية الدسوقي على مغني اللبيب: ١ / ٤٧٨.

(٤) ينظر: الكتاب: ١٠٧/١، وشرح كتاب سيبويه، للسيرافي: ٤٣٠/١.

(٥) ينظر: شرح الرضي: ١ / ٢٧٣.

وأما على القول بظرفيتها الزمانية فتكون (إذا) مضافة إلى الجملة بعدها^(١)، والعلة في إضافة ظروف الزمان إلى الأحداث هي وقوعها فيها. والذي يميل إليه البحث أن (إذا) حرف مفاجأة – كما سبق بيان ذلك – وعليه فهي لا تُضاف إلى الجملة بعدها؛ لأن الحروف لا تُضاف.

تعاقب (إذا) الفجائية والفاء في جواب الشرط واجتماعهما:

يرى النحاة أنه إذا كان جواب الشرط جملة اسمية وجب اقترانه بالفاء، ويجوز إقامة (إذا) الفجائية مقامها.

والذي يبدو أن هذا التعبير ليس دقيقاً على إطلاقه، نعم إنَّ (الفاء) و(إذا) تشتركان في وظيفة الربط، ولكنهما تختلفان في إضفاء دلالة معينة على الجملة، فضلاً عن أن قولهم بجواز إقامة إحدى الأدوات مقام الأخرى يدحضه اجتماع الأدوات معاً في بعض السياقات، مما جعلهم يضطربون في تخريج هذا الاجتماع أو تعليقه.

ولنعرض آراء طائفة من النحاة في المسألة، ثمَّ نبين الرأي الراجح إن شاء الله تعالى، فقد أوضح الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) أن وظيفة (إذا) هي الربط، وذلك فيما حكاه عنه تلميذه سيبويه إذ قال: «وسألت الخليل عن قوله ﷺ: ﴿وَإِنْ تُصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] فقال: هذا كلام معلق بالكلام الأول كما كانت الفاء مُعَلَّقةً بالكلام الأول»^(٢).

ولا نجد اختلافاً أو خروجاً عما قاله الخليل، عند الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ) إذ قال في الآية الكريمة نفسها: «فقوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هو الجواب؛ لأن (إذا) معلقةً بالكلام الأول بمنزلة الفاء»^(٣).

وبالمثل لم يخرج عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) عما اختطه الخليل من قبل، إذ قال: «و(إذا) بمنزلة الفاء في تعليقه الجملة بالشرط وذلك أن (إذا) هذه ظرف المفاجأة

(١) شرح ألفية ابن معط: ٢ / ١١٣٧.

(٢) الكتاب: ٣ / ٧٣ – ٧٤.

(٣) معاني القرآن: الأخفش الأوسط: ٢ / ٦٥٧. ولكن حكى السيوطي عنه خلاف ذلك، ينظر: همع

الهوامع: ٤ / ٣٢٩.

وهي دالة على التعقيب الذي يدل عليه الفاء وإذا كان كذلك كان قوله ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ بمنزلة قولك: وإن تصبهم سيئة فهم يقنطون»^(١).

ولم يخرج ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) عن ذلك إذ رأى أن المفاجأة والتعقيب متقاربان في المعنى؛ ولذلك يتعاقبان^(٢)، وبالمثل رأى السيوطي (ت ٩١١هـ) أن (إذا) نائبة عن الفاء ومغنية عنها في جواب الشرط^(٣).

والحق أن بين الأداتين فرقاً في المعنى الذي تضيفانه على الجملة، فالفاء تفيد السبب في هذا السياق، ولا تفيد المفاجأة، بعكس (إذا) التي تدل على المفاجأة والمباغطة، ولا تفيد السبب.

وظهر الإشكال عند النحاة في الجمع بينهما حيث تؤدي (إذا) الفجائية وظيفه الربط، والفاء تؤدي وظيفه الربط أيضاً؛ لذا شرعوا يبحثون عن مخرج لذلك، ويؤولون ما أشكل عليهم، حتى يكون هذا التعبير مُسوِّغاً، فقالوا: إن اجتماع (إذا) و(الفاء) معاً يفيد التوكيد، أو أن الفاء زائدة، أو عاطفة. والقول الراجح في ذلك أن اجتماعهما لا يفيد التوكيد لاختلاف دلالتيهما، إذ لو كانتا بمعنى واحد لأمكن اجتماعهما للتوكيد، ولكن جيء بالفاء لربط الجواب بالشرط مع إفادة السبب، وجيء بـ(إذا) الفجائية للدلالة على معنى المفاجأة، فاجتمعتا لاختلاف وظيفتيهما.

القسم الثاني ملحق بالأداة وسياقاتها في القرآن الكريم:

أولاً: سياق الشرط:

وردت (إذا) الفجائية في جواب (إذا) الشرطية في عشرة مواضع، ووردت في سياق العطف على جوابها مرة واحدة، في حين وردت في جواب (لما) في ثمانية مواضع، وفي جواب (إن) في موضعين. وهذا ما سنتكفل جداول البحث بإيضاحه.

(١) المقتصد في شرح الإيضاح: ٢ / ١١٠١.

(٢) ينظر: شرح المفصل: ٣ / ١٢٦.

(٣) ينظر: همع الهوامع: ٤ / ٣٢٩.

(الجدول - ١ - مواضع مجيء (إذا) الفجائية في سياق (إذا) الشرطية)

الآية	رقمها	السورة	مكان النزول	السياق
١. فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ	٤٣ ٤٤	الأنعام	مكية	سياق العطف على جواب (إذا) الشرطية
٢. وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ نَّعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتِهِمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُفٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ؛	٢١	يونس	مكية	سياق جواب (إذا) الشرطية
٣. وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَالِيهِ تَجْرُؤُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرِيحٍ يُشْرِكُونَ	٥٣ ٥٤	النحل	مكية	سياق جواب (إذا) الشرطية
٤. حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَا حُوحُ وَمَا جُوحُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ	٩٦ ٩٧	الأنبياء	مكية	سياق جواب (إذا) الشرطية
٥. بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا	٦٣ ٦٤	المؤمنون	مكية	سياق جواب (إذا) الشرطية

الشرطية				مُتَرَفِّهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ تَخْرُوبُونَ
سياق جواب (إذا) الشرطية	مكية	المؤمنون	٧٦ ٧٧	٦. وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ
سياق جواب (إذا) الشرطية	مدنية	النور	٤٧ ٤٨	٧. وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ
سياق جواب (إذا) الشرطية	مكية	الروم	٢٥	٨. وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ
سياق جواب (إذا) الشرطية	مكية	الروم	٣٣	٩. وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَاؤُهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ
سياق جواب (إذا) الشرطية	مكية	الروم	٤٨	١٠. اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ
سياق جواب (إذا) الشرطية	مكية	الزمر	٤٥	١١. وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴿٤٥﴾ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ

الجدول - ٢ - مواضع مجيء (إذا) الفجائية في سياق (لما)

السياق	مكان النزول	السورة	رقمها	الآية
سياق جواب (لما)	مدنية	النساء	٧٧	<p>١. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ اللَّهُ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا</p>
سياق جواب (لما)	مكية	الأعراف	١٣٤ ١٣٥	<p>٢. وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مَوْسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَهْلِ هُم بِلُغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ</p>
سياق جواب (لما)	مكية	يونس	٢٢ ٢٣	<p>٣. هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ</p>

				<p>دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُجِيتْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَخْلَتْهُم إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ</p>
سياق جواب لما	مكية	الأنبياء	١١ ١٢	<p>٤. وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أَحْسُوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ</p>
سياق جواب (لما)	مكية	العنكبوت	٦٥	<p>٥. فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَحْنُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ</p>
سياق جواب (لما)	مكية	الزخرف	٤٦ ٤٧	<p>٦. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَأَمَّا بِيَأْتِنَا حَاءَهُمْ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ</p>
سياق جواب (لما)	مكية	الزخرف	٤٩ ٥٠	<p>٧. وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٥٠﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ</p>
سياق جواب (لما)	مكية	الزخرف	٥٧	<p>٨. وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ</p>

الجدول - ٣ - مواضع مجيء (إذا) الفجائية في سياق (إن) الشرطية

السياق	السورة	رقمها	الآية
سياق جواب (إن) الشرطية	التوبة	٥٨	١. فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا
سياق جواب (إن) الشرطية	الروم	٣٦	٢. وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

(الجدول - ٤ - الآيات التي وردت فيها (إذا) الفجائية في غير سياق الشرط)

السياق	السورة	رقمها	الآية
سياق جملة الفعل الماضي المبني للمعلوم	الأعراف	١٠٦ ١٠٧	١. إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَالْقَىٰ
الماضي المبني للمعلوم	الأعراف	١٠٨	٢. _____
مكية	الأعراف	١١٧	٣. وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ

بجملته مفسرة				<u>عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ</u>
سياق الجملة الاسمية المؤكدة بـ(إن) وذلك بالعطف على جواب الشرط الواقع خبراً	مكية	الأعراف	٢٠١	٤. <u>إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُنْصَرُونَ</u>
سياق جملة الفعل الماضي المبني للمعلوم	مكية	النحل	٤	٥. <u>خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ</u>
سياق جملة الفعل الماضي المبني للمعلوم	مكية	طه	١٩ ٢٠	٦. <u>قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَىٰ ۖ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَبَّةٌ تَسْعَىٰ</u>
سياق العطف على جملة مقول القول لفعل القول الماضي	مكية	طه	٦٥ ٦٦	٧. <u>قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۖ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۗ فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصَاهُمْ تُجَلُّ إِلَىٰ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ</u>
سياق جملة الفعل المضارع المسبوق بحرف اضراب	مكية	الأنبياء	١٧ ١٨	٨. <u>لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ هَوَاً لَّا تَخَذُنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ۖ يٰٓلَ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ</u>
سياق جملة الفعل الماضي المبني للمعلوم	مكية	الشعراء	٣١ ٣٢	٩. <u>قَالَ فَاتِّبِعْ بِهٖ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ</u>

سياق جملة الفعل الماضي المبني للمعلوم	مكية	الشعراء	٣٣	١٠. <u>وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ</u>
سياق جملة الفعل الماضي المبني للمعلوم	مكية	الشعراء	٤٤ ٤٥	١١. <u>فَالْقَوَا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَٰلِبُونَ</u> ﴿٤٤﴾ <u>فَأَلْفَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ</u>
سياق جملة الفعل الماضي المفسر بجملة مفسرة	مكية	النمل	٤٥	١٢. <u>وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ تَخْتَصِمُونَ</u>
سياق العطف على جملة الفعل الماضي الناقص (أصبح)	مكية	القصص	١٧ ١٨	١٣. <u>قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيرًا لِلْمُجْرِمِينَ</u> ﴿١٧﴾ <u>فَأَصْحَبَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ</u> ﴿١٨﴾ <u>قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ</u>
سياق الجملة الاسمية المؤكدة بالتقديم والتأخير	مكية	الروم	٢٠	١٤. <u>وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ</u>
سياق العطف على جملة الفعل الماضي الناقص (كان) والمؤكد بأسلوب الحصر	مكية	يس	٢٩	١٥. <u>إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِحَّةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ حَمِيدُونَ</u>
سياق الجملة الاسمية الممتدة بجملة حالية أو وصفية	مكية	يس	٣٧	١٦. <u>وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلِ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ</u>

سياق جملة الفعل الماضي المبني للمجهول	مكية	يس	٥١	١٧. <u>وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَحْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ</u>
سياق العطف على جملة الفعل الماضي الناقص (كان) والمؤكد بأسلوب الحصر	مكية	يس	٥٢ ٥٣	١٨. <u>قَالُوا يَنْوِيلَنَا مِنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرَّادِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ</u> * <u>إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِحَّةً ^سوَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ</u>
سياق جملة الفعل المضارع المنفي بـ(لم) والمسبوق بأداة استفهام تقييد التقرير	مكية	يس	٧٧	١٩. <u>أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ</u>
سياق الاسم الموصول الواقع بدلاً في سياق مقول القول الامري	مكية	يس	٧٩ ٨٠	٢٠. <u>قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ</u> * <u>الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ</u>
سياق الجملة الاسمية المؤكدة بـ(إنما)	مكية	الصفات	١٩	٢١. <u>فَإِنَّمَا هِيَ زَحْرَةٌ ^سوَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ</u>
سياق جملة الفعل الماضي المبني للمجهول	مكية	الزمر	٦٨	٢٢. <u>وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ</u> ^س <u>ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ</u>

سياق جملة فعل الأمر المسند للمخاطب	مكية	فصلت	٣٤	<p>٢٣. وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ^جأَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ</p>
سياق جملة الفعل الماضي المسبوق بأداة استفهام	مكية	الملك	١٦	<p>٢٤. ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ</p>
سياق الجملة الاسمية المؤكددة بـ(إنما)	مكية	النازعات	١٣ ١٤	<p>٢٥. فَإِنَّمَا هِيَ زَحْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ</p>

خاتمة واستنتاج:

يقول الدكتور علي أبو المكارم: «إنّ غاية البحث النحوي رصد كافة الظواهر الناتجة عن تركيب الكلمات والمركبات في الجملة من خلال تحليل استقرائي لنصوص اللغة المقصود وضع القواعد النحوية لها، مع ما يتطلبه ذلك من تصنيف وتفسير»^(١)، وعليه نشير إلى ما خلّصَ إليه البحث وما استنتجه:

١. ترجيح القول بحرفية الأداة (إذا) الفجائية.
٢. بيان أنّ الاخفش الأوسط والثلوبين كان لهما قولان في توجيه الأداة، إذ نقل عنهما القول بالظرفية الزمانية والحرفية.
٣. مناقشة ما عُرِي إلى الكوفيين من القول بحرفية الأداة، وبيان أنّ جمهورهم كان يرى فيها الظرفية المكانية المضمنة معنى الفعل، وأما القول بحرفية الأداة فقد يكون قولاً لبعضهم.
٤. استبعاد القول بفعلية الأداة، وبيان أنّ مقصد القائلين بذلك هو التفسير المعنوي لوظيفة الأداة، أو تضمينها معنى الفعل، على الأرجح.
٥. عرض البحث لتوصيف بناء الجملة وتركيبها بعد الأداة، فوقف على أربعة أنماط هي: مجيء المبتدأ والخبر بعدها، وهو الاستعمال الأشيع، وبه نطق الكتاب الكريم، وقد تنوع الخبر في هذا النمط فورد مفرداً وجملة وشبه جملة، ولكنه لم يرد جملة شرطية؛ لأنّ المفاجأة قائمة على أمر واقع من خلال دلالة الأداة على الحال لا الاستقبال، في حين تقوم الجملة الشرطية على أمر متوقع. وأما النمط الثاني فهو مجيء الاسم الأول مرفوعاً والثاني منصوباً على الحالية، علماً انّ المسألة الزنبورية لا تتضوي – على الأرجح – ضمن هذا النمط؛ لأنّ الضمير المنصوب في (فإذا هو اياها) معرفة، والحال تكون نكرة في الأشيع. وكان النمط الثالث قائماً على إيلاء الأداة المبتدأ فقط، وأما النمط الأخير فهو مجيء الاسم بعد الأداة مشغولاً عنه.
٦. عرض البحث لتعاقب (إذا) الفجائية والفاء في جواب الشرط، ولاجتماعهما، منتهاياً إلى أنّ تعاقبهما مرتبط بسبب دلالي، فعلى الرغم من اشتراكهما في الربط فإنّ الفاء انفردت بالدلالة على السببية، في حين انفردت (إذا) بالدلالة على المفاجأة. ثم انتهى إلى أنّ

(١) تعليم النحو العربي عرض وتحليل: ٢١.

- اجتماعهما كان لاختلاف دلالتهما فلا يجتمعان إلا حينما يُراد إضفاء دلالتها السببية والمفاجأة معا على جواب الشرط.
٧. وردت الأداة في جواب (إذا) الشرطية في الاستعمال القرآني في عشرة مواضع، وفي سياق العطف على جوابها في موضع واحد. في حين تصدّرت جواب (لما) في ثمانية مواضع، وتصدّرت جواب (إن) في موضعين.
٨. كما اظهر البحث وقوع جملة (إذا) الفجائية في سياقات أخرى غير سياق الشرط، وهي: أولاً: سياق الجملة الاسمية المؤكدة، فظهر أن هذا السياق ورد مؤكداً بـ(إن) وبـ(إنما) وكذلك بالتقديم من خلال تقديم ما حقه التأخير. وقد أفادت جملة (إذا) في هذا السياق – كما هو شأنها – إبراز عنصر المفاجأة في الحدث الذي تصوره – أو تحكيه جملتها.
٩. وجاء سياق الفعل الماضي غنياً ثراً، إذ تعددت أنماطه وصوره، وسبب ذلك فيما يبدو أن جملة المفاجأة تكون مؤسسة على المفارقة بين حدثٍ قد وقع، وحدثٍ آخر يقع الآن، يكون مخالفاً له أو مباغتا، أو غير متوقع.
- فوردت جملة (إذا) الفجائية في سياق الماضي المبني للمعلوم وكذلك في سياق صيغة المبني للمجهول، وفي سياق الماضي المسبوق باستفهام، وفي سياق العطف على جملة الفعل الماضي الناقص (كان) و(أصبح). وكذلك في سياق العطف على جملة مقول القول لفعل القول الماضي، وكذلك في سياق الماضي المفسر بجملة مفسرة.
- وقد تنوعت صور المبتدأ والخبر في جملة (إذا الفجائية) مع كل ذلك، مع احتفاظها بسمتها الغالبة القائمة على الإيجاز وعدم الامتداد بالمكملات.
١٠. في حين وردت جملة (إذا) الفجائية في سياق الفعل المضارع، وفي سياق فعل الأمر في موضعين مع كل سياق. فوردت في سياق المضارع مع المسبوق بحرف إضراب، والمضارع المنفي بـ(لم) والمسبوق بأداة استفهام تفيد التقرير. ووردت في سياق فعل الأمر مع الأمر المسند إلى المخاطب، وفي سياق الاسم الموصول الواقع بدلاً في سياق مقول القول الأمري.
١١. واتضح من خلال البحث ان ورود جملة (إذا) الفجائية في القسم المكي من القرآن الكريم كان أكثر من القسم المدني بما يزيد على أربعة عشر ضعفاً، إذ وردت في القسم المكي في ثلاثة وأربعين موضعاً، في حين وردت في القسم المدني في ثلاثة مواضع فقط ؛ وذلك يعود إلى طبيعة الخطاب في السور المكيّة، فهو خطاب موجه في أغلبه إلى المشركين فهو يحاورهم في موضوع العقيدة، ويكشف عن جهلهم في عبادة من لا

يستحق العبادة. أما السور المدنية فجاءت حافلة بالتشريعات التي تخصّ الأسرة المسلمة والدولة الإسلامية، وقلمًا يحتاج هذا النوع من الخطاب إلى مثل هذا الأسلوب القائم في أساسه على المفارقة بين المتوقع واللامتوقع.

المصادر والمراجع:

أولاً : الكتب المطبوعة:

١. إعراب القرآن الكريم وبيانه: محيي الدين درويش، ط٦، دار اليمامة — دمشق، بيروت ١٤٢٣ هـ — ٢٠٠٢ م.
٢. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين: أبو البركات ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، المكتبة التجارية الكبرى — القاهرة ١٣٨٠ هـ — ١٩٦١ م.
٣. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الفكر ١٣٩٩ هـ — ١٩٨٨ م.
٤. تعليم النحو العربي عرض وتحليل، د. علي أبو المكارم، ط١، مؤسسة المختار للطباعة والنشر — القاهرة ٢٠٠٧.
٥. الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: محمود صافي، ط١، دار الرشيد — دمشق، ١٤٢٥ هـ — ٢٠٠٥.
٦. الجنى الداني في حروف المعاني: المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق: طه محسن، دار الكتب للطباعة والنشر — الموصل ١٩٧٦.
٧. حاشية الدسوقي على مغني اللبيب: مصطفى محمد عرفة الدسوقي (ت ١٢٣٠هـ)، د. ت، د. ط.
٨. خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق: محمد نبيل طريفي، ط١، دار الكتب العلمية — بيروت ١٤١٨ هـ — ١٩٩٨ م.
٩. رصف المباني في شرح حروف المباني: المالقي (ت ٧٠٢هـ)، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، ط٣، دار القلم — دمشق ١٤٢٣ هـ — ٢٠٠٢ م.
١٠. سر صناعة الإعراب: ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، ومحمد الزفزاف، وإبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي — مصر ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٤ م.

١١. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ابن عقيل الهمداني المصري (ت ٧٦٩هـ)، تحقيق: د. محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية - بيروت ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
١٢. شرح ألفية ابن معط: ابن القواس الموصلية (ت ٦٢٨هـ)، تحقيق: د. علي الشوملي، ط١، نشر مكتبة الخريجي - الرياض ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
١٣. شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: ابن مالك (ت ٦٧٢هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، وطارق فتحي سيد، ط١، دار الكتب العلمية ٢٠٠١.
١٤. شرح الرضي على كافية ابن الحاجب: رضي الدين الاسترأبادي (ت ٦٨٨هـ)، نشر: د. اميل يعقوب، ط١، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت ٢٠٠٦.
١٥. شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ: ابن مالك (ت ٦٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد المنعم أحمد هريدي، ط١، د. د. ط.
١٦. شرح كتاب سيبويه: ابو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ)، تحقيق: احمد حسن مهدي، وعلي سيد علي، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ٢٠٠٨.
١٧. شرح المفصل: ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، نشر: د. اميل بديع يعقوب، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠١.
١٨. الفرائد الجديدة، (نظم الفريدة وشرحها المطالع السعيدة): جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: عبد الكريم المدرس، دار إحياء التراث الإسلامي - بغداد ١٩٧٧.
١٩. الكتاب: سيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
٢٠. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، ط١، مكتبة العبيكان - الرياض ١٩٩٨.
٢١. مجالس العلماء: الزجاجي (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، صادر عن وزارة الإرشاد - الكويت ١٩٦٢.
٢٢. معاني القرآن: الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ) تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠٢.
٢٣. معاني القرآن: الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، دار السرور، (د.ت).

٢٤. معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، ط ٣، دار الفكر ١٩٨٠.
٢٥. مغني اللبيب عن كتب الأعراب: ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط ٦، دار الفكر — بيروت ١٩٨٥.
٢٦. المقتصد في شرح الإيضاح: عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: د. كاظم بحر المرجان، نشر دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٢.
٢٧. المقتضب: المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة — عالم الكتب — بيروت، د. ت.
٢٨. من أسرار الجمل الاستثنائية (دراسة لغوية قرآنية): د. أيمن عبد الرزاق الشوّا، ط ١، دار الغوثاني — دمشق ٢٠٠٦.
٢٩. المنصف من الكلام على مغني ابن هشام: الشُّمَّي (ت ٨٧٢هـ)، المطبعة البهية، د. ت.
٣٠. موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب: خالد الأزهرى (ت ٩٠٥هـ)، تحقيق: عبد الكريم مجاهد، ط ١، مؤسسة الرسالة — بيروت ١٩٩٦.
٣١. الموفي في النحو الكوفي: صدر الدين الكنغراوى (ت ١٣٤٩هـ)، تحقيق: محمد بهجت البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي — دمشق.
٣٢. النحو الوافي: عباس حسن، ط ٥، دار المعارف — مصر ١٩٧٥.
٣٣. النكت في تفسير كتاب سيبويه: الأعلام الشنتمري (ت ٤٧٦هـ)، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، ط ١، منشورات معهد المخطوطات العربية — الكويت ١٩٨٧.
٣٤. همع الهوامع شرح جمع الجوامع: السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب ٢٠٠١.

ثانياً : الرسائل الجامعية:

١. الحفاية بتوضيح الكفاية للبيتوشي، رسالة ماجستير قدمها: طه صالح أمين إلى كلية الآداب — جامعة صلاح الدين ١٩٩٣، بإشراف: الدكتور محسن إسماعيل محمد.